الحداثة الغربية في فكر عبد الوهاب المسيري

مداخلة الدكتور عز الدين معميش
أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائـــر

تبعا لسلسلة الندوات التي دأب على تنظيمها المركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة، التأم شمل ثلة من أساتذة جامعة الجزائر حول موضوع حيوي وشيق له امتداداته وآثاره العميقة على حياتنا العربية المعاصرة، والموسوم ب:" الحداثة الغربية في فكر عبد الوهاب المسيري " تناول الأستاذ الدكتور "محمد الأمين بلغيث" الجانب التاريخي للموضوع، ودرس الدكتور "عبد الحليم بيشي" مصادر فكر المسيري، وركّز الدكتور "عزالدين معميش" على كشف حقيقة الحداثة الغربية، ومقاربة المسيري لهذه الحداثة في تجلياتها المختلفة.

وفي هذه الورقة عرض تفصيلي لما جاء في مداخلة الدكتور "عزالدين معميش".

مقدمة:

الحداثة مذهب فكري واسع الانتشار، تجاوز النظرة التقليدية التي كانت قائمة على الحقب الزمنية، تبدّى وظهر كمنظومة قوية من المشاعر والأفكار ابتداء من النصف الأول من القرن العشرين، ولعب دورا حاسما في تحديد مسار التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي في الغرب، واستطاع أن يضمن الشروط الموضوعية لهذا المسار.

ولذلك أصبح يُفرّق بين الحداثة كتيار فكري عالمي، وبين الحداثة كتحقيب زمني جاء مباشرة بعد نكسة الكنيسة ورجال الدين أمام الحركة العلمية القوية التي قادها عدد من الوضعيين الغربيين، ككوبرنيكس... فهي حالة تاريخية من جهة، وتيار فكري واسع يحمل مضامين عميقة وقيم جديدة للإنسان والكون والحياة، وما لبث أن توسّع وتمدّد ليشمل تيارات جديدة أكثر حدّة وجرأة في طرح أفكار تجاوزت الإنسان ذاته كمركز للوجود، يعبّر الفيلسوف ماكس فيبر عن ذلك بقوله:(إن قدر حقبة أكلت من شجرة المعرفة هو

الاعتراف بأن مواقفنا من الحياة والكون ليست أبدا نتاج تعاظم معرفتنا التجريبية ،وإن أرفع المثل العليا الأشد تحريكا لنا، إنما تتشكّل فقط في الصراع مع مثل أخرى مختلفة، هي مقدّسة عند الآخرين، تماما كما هي مُثلنا بالنسبة إلينا).

ويمكن أن نعتبر مشروع الدكتور المسيري في بناء رؤية معرفية متوازنة وشاملة تأخذ بعين الاعتبار، الإنسان والطبيعة والدين، كمراكز لا يمكن تجاوزها، قائماً (أي: هذا المشروع) على اختراق مشاريع الحداثة الغربية في تجلياتها المختلفة، وخاصة النموذج الأمريكي منه، وهو رغبة لمستها أثناء قراءتي لكتاب الدكتور المسيري "الحداثة وما بعد الحداثة" حوارًا مع الدكتور فتحي التريكي، حيث أكد على هذا الأمر، من خلال طرحه سؤالاً على دريدا عند زيارته مصر سنة 2001: كيف يمكن الجمع بين الاتجاه الهيومانى (الإنساني) والنزعة السائلة المائعة التي تطبع المشروع الحداثي؟.

وهنا لا يسعني إلاّ أن أؤكد أن مشروع الدكتور المسيري في نقد الحداثة وما بعد الحداثة من أكثر النماذج المعرفية عمقاً ومصداقية على الصعيد العالمي وليس العربي وحسب، لا يضاهيه في هذا المجال سوى مشروع إدوارد سعيد في قراءة الاستشراق والنموذج الامبريالي في كتابيه :"الاستشراق" و"الامبريالية والثقافة" رغم أن مشروع الدكتور المسيري لم يحظ بالدعم الإعلامي المطلوب من الهيئات المحلية والدولية، فلم يترجم أي من كتبه الصادرة في هذا الموضوع إلى أي لغة أخرى، بعكس كتابي "إدوارد سعيد"، ورغم ذلك فقد سجّلنا القدرة النقدية الكبيرة للمسيري في تبسيط النماذج الفلسفية والأدبية والمعرفية الغربية، وفضح استراتجياتها وأهدافها وفك ارتباطاتها وتشابكاتها.

يقول أحد الباحثين المهتمين بالحداثة في البيئة العربية:(تتمثل الصورة التي يعاين القارئ من خلالها جهد المسيري اليوم في هيئة رؤية نظرية نقدية للحضارة الغربية تنطلق من تأملات حول الإنسان، والمركز، والمعيار الأخلاقي، ومعايير المادة، وإمكانية التجربة المتجاوزة، وطبيعة المنظومات التفسيرية، وعلاقات العلم والمعرفة والقيمة، وقد يكون من اللافت حقا: أن البلورة التي أنجزها المسيري لهذه الأفكار طوال ثلاثين عاماً أو يزيد، قد جاءت في إثر تحول

دراماتيكى من النقيض إلى النقيض تماماً، أو مما يسميه هو نفسه بـ"الانبهار" بالحضارة الغربية إلى الرؤية النقدية الشاملة والجذرية كما تتضح في كتاباته).

ولعلني هنا أحرص على اقتران ما بعد الحداثة بالحداثةكما ورد في كتابات المسيري، فالتأسيس لقيم ما بعد الحداثة بتياراتها المختلفة لم ينهض إلا عبر مشروع الحداثة الذي أعلَنَ منذ البداية سقوط الحضارة الغربية ومنظومتها وضرورة تقويض مركزيتها وميتافيزيقيتها، وعليه فلا إشكال إطلاقاً في فضح منظومة ما بعد الحداثة عبر مدخل الحداثة، فما بعد الحداثة مرحلة زمنية معيّنة حملت معها قيماً وتصورات جديدة لشتى الميادين العلمية والسياسية والحياتية، تجاوزت الحداثة كتصور ومفهوم ومنظومة ميتافيزيقية، وقام على أنقاض الظاهراتية والبنيوية وغيرها.

أوّلا- المفاهيم المشكّلة للحداثة الغربية في نظر المسيري:

ولعل أهم المفاهيم التي يبسطها المسيري من دراسته ومعايشته العميقة للحداثة الغربية، ما يلي:

1 -**الطبيعة المتحركة:** ويقصد بهذا المفهوم أن الطبيعة نظام يتحرك، بلا هدف أو غاية، نظام واحدي مغلق مكتف بذاته، يتجاوز مركزية الإنسان، وترتد إليه كل الظواهر مهما بلغ تنوعها ،وهذا المبدأ كامن في الطبيعة ذاتها، لذلك فالواحدية هي الأصل في هذا العالم.

ولاشك أن هذا الطرح أو المفهوم، هو وحدة وجود متطرفة، إلا أنه عدل عن الكمونية الروحية، حيث الإله يحل في مخلوقاته ويمتزج بها ،ثم يتوحّد معها ويذوب فيها تماما، بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه، فهو إله اسما ولكنه هو "الطبيعة /المادة " فعلا . وتطورت الصياغة مع الهيغليين الجدد، فتحدّثوا عن "الروح المطلق" وعن "روح التاريخ"، وكل ما يعنيه ذلك أن الإله في وحدة الوجود الروحية يتدخل في الطبيعة ويكمن فيها وفق عناصر محسوسة.

فعدل الطرح الحداثي إلى وحدة الوجود المادية (الحلولية الكمونية المادية)، حيث يتم فيها الاستغناء تماما عن أية لغة روحية أو مثالية، ويخضع

الوجود للمبدأ الواحد، ألا وهو "قوانين الطبيعة"، أو "القوانين العلمية"،أو "قوانين الحركة"، وهو قانون شامل يمكن تفسير كل الظواهر – ومن بينها الظاهرة الإنسانية- من خلاله. ويبدو لأول وهلة تقاطع هذا الطرح مع مسلمات الماركسية، لكن المسيري يرد ذلك بكون الماركسية ثلاثية الأضلاع وبعيدة عن عقيدة الوحدة. ولكن بالمقابل يمكن اعتبارها قريبة من الطروحات الداروينية، حيث لا تفرقة بين الإنسان و الطبيعة، فهما مادة واحدة نسبية لا قداسة لها، خاضعة للمقاييس الكمية والطفرات الرياضية.

ومن ثم فعلى الإنسان أن يتخلق بأخلاق الطبيعة، فلا رحمة، ولا مشاركة، ولا ثبات، قال هتلر:"يجب أن نكون مثل الطبيعة ،والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة". كما أنه ينتفي الجوهر الإنساني (الحياة،الضمير،الروح)، ويكون بدله مجموعة عمليات كيميائية، يتم فيها التلاعب بالجزئيات، ويتحول الإنسان إلى "حيوان كامل خاضع لقوانين التطور والطبيعة"، فلا يختار ولا يقرّر، فكل شيء قد تم اختياره وتقريره له،وهو لا يحمل أية أعباء أخلاقية، بل يتصرّف بشكل آلي حسب طبيعته، وطبيعته لا خير فيها ولا شر ولا أسئلة كبرى.

2- **الفردية:** ومن المفاهيم المؤسّسة لقيم الحداثة، مفهوم الفردية، والذي يعني الحرية المطلقة في التعبير عن الذات في شتى مجالات الحياة، بحيث يبتعد عن الأنماط والتقاليد والمحاكاة والروابط الاجتماعية والأخلاقية.

وتضخّمت الفردية في القرن العشرين نتيجة الفلسفات الطاغية للحركات الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية ،ثم تعاظمت مع التشكّلات الحداثية،ويمكن اعتبار كتاب الأمريكي "جوناثان رابان" :(المدينة الناعمة) المنشور عام 1974 تأريخا جديدا لحداثة جديدة قامت على نوع جديد مشكّل للمدينة قائم من جيل فريد من الموظّفين وأصحاب المهن، حياتهم غير مستقرة ومتغيّرة باستمرار، فطبعت حياتهم المدينةً طابعا يعبّر عن مضمونها في التغيّر والتبدّل والطموح اللامحدود والسطحية والشفافية، وانعكس ذلك على نوع المعمار واللّباس والأكل وكل شيء في نمط الحياة:"فقد غدت الهوية الشخصية ناعمة مائعة ومفتوحة دائما على ممارسة الإرادة والخيال، سواء كان الأمر للأفضل أم للأسوأ، فإن المدينة تدعوك باتجاه إعادة

تشكيلها كيفما تستطيع العيش فيها، يكفي أن تقرّر أنت كيفما تكون، وستجد أن المدينة التي تريدها هي بجانبك، قرّر ما شكل المدينة الذي تريده وستجد أن هويتك قد تماهت فيها".

ويطلق المسيري على هذه الفردية المتضخمة:"النزعة الجنينية " الراغبة في فقدان الذات والوجود والممتزجة بصفات الكائنات الطبيعية ذات التوجه البهيمي.

صحيح ما يقال عن ضرورة تلك العلاقة الخاصة بين الإنسان وموضوعاته التي ما انفكّت تتجدّد في طور الحداثة، حيث الأوهام الناعمة والأساطير المؤسسة لليوتوبيا التكنولوجية، والمطامح المتزلّجة، إلاّ أن الإنسان تاه وسط هذا الركام، وأصبح نتاج علاقات اجتماعية جد سريعة ومتغيرة، بحيث ضل كثير من الناس طريقهم، مما نتج عنه انعكاسات كارثية على الإنسان والوجود، تجسّدت في شعور مستمر بالقلق والتوتر العميقين، وخوف أبدي من انحلال عرى الحياة الاجتماعية إلى فوضى لا حدّ لها، وأحداث القتل الغامضة وفصول العنف الدموي المجاني، وبذلك تحوّل هذا النمط من الحياة إلى ملهاة تراجيدية يتحكّم فيها المجانين والأوغاد. وما ولادة "تيار الحنين" في الغرب، والذي يرغب بشدّة في العودة إلى طبيعة الإنسان الأصلية، ما يسميه المسيري بـ:"الإنسان الإنسان"، إلاّ مظهر من مظاهر خواء الحداثة.

3-**السيولة والانفصال عن القيمة:** يرجع المسيري مفهوم الانفصال عن القيمة إلى ما يسمى بـ (أخلاق الصيرورة)، حيث انبناء الواقع على العلم والتكنولوجيا والعقل كآليات وحيدة، مع تجاهل البعد الإنساني والمعرفي (الكلي والنهائي)، ولذلك فالأخلاق ليست مجموعة من المبادئ المتجاوزة لرغبات الفرد ومصلحته الشخصية، والتي يلتزم بها الإنسان، وإنما هي مجموعة من الإجراءات التي يتفق عليها أعضاء مجتمع ما .

ويعتبر المسيري المفهوم غريبا يحتوي داخله على تناقض جوهري، يشبه قولنا "جوع الشبع" أو "عطش الارتواء"، فالأخلاق تتّسم بحد أدنى من الثبات والانفصال عن الواقع اليومي، على عكس أخلاق الصيرورة التي تعني في نهاية الأمر التسليم بما هو قائم والرضوخ له، والقدرة على تعديل القيم بعد إشعار قصير للغاية، والتغيّر السريع ومعايشة بيئةٍ كلُّ ما فيها يتغيّر.

وطبقا لكل ما سبق ولد مصطلح "السيولة"، والذي يعني سقوط الإنسان في الميوعة وقابلية التشكّل وفق جميع المتطلّبات، فاستحق أن يكون إنسانا سائلا في مقابل الإنسان الصلب المقاوم لرغباته ونزواته والحريص على مبادئه، إلى أن يصل إلى لحظة التحقق النماذجية، حين يصير مع أشباهه مجتمعا نسقا آليا نمطيا خاضعا للحسابات الكمية، يشبّهها المسيري بعالم "كافكا وبكيت" حيث يجد الأفراد أنفسهم داخل متاهة من الأوامر التي تأتيهم من مصادر مجهولة لا يعرفونها، يتردد صداها داخل قفص حديدي مطبق لا إنساني، وهذه المصادر لا تؤمن إلاّ بنمذجة هؤلاء المساجين وفق الترشيد المادي البحت.

4-**اليوتوبيا التكنولوجية:** هذا المفهوم هو حالة مثالية تريد فلسفة الحداثة تكريسها عبر إخضاع الإنسان تماما لمنطق الآلة الذي لا يعرف التوقّف، وتتجسّد في صورة "السوق/المصنع" حيث التعاليم المادية الصارمة، وأهمها:

أ- **السوق**/المصنع لا انقطاع فيه ولا فراغات، فهو يمتد ليشمل الوطن بأسره ،وهاهو قد امتد ليشمل العالم.

ب- **السوق**/المصنع شيء منتظم متّسق مع نفسه، خاضع لقوانين ثابتة منتظمة مطردة واضحة بسيطة رياضية حتمية وآلية.

ت- **السوق**/المصنع لا يكترث بالفرد ولا بالإنسان، ولا بالخصوصيات ولا بالغائيات أو القيم الإنسانية ،فهو يتجاوز الإنسان ولا يتجاوزه الإنسان.

ث- **السوق**/المصنع يتحرّك بشكل تلقائي آلي حسب قوانين العرض والطلب الآلية الرياضية الصارمة الكامنة في السوق ذاته.

ج- **السوق**/المصنع يحوي داخله قوانينه وكل ما نحتاجه لفهمه،وهو واجب الوجود في النظم الرأسمالية والنظم الاشتراكية على حدّ سواء.

5- **التمركز حول الأنثى:**والمقصود به خضوع الفرد للحتميات الغريزية، ليتحوّل هدفه السامي إلى إشباع شهواته الجنسية، لأنه لا يشعر بوجوده الذاتي إلاّ في فلك الأنثى، والعكس صحيح.

6-**اللحظة النازية:** رغم العقلانية التي تدّعيها الحداثة، إلاّ أنه شاع في الآونة الأخيرة بعض المصطلحات المصادمة للعقلانية، ومن أهمها مصطلح "نهاية التاريخ"، والذي هو في حقيقته العميقة تكريس لمبادئ الجدل الدياليكتيكي الهيغلي، على أن يستقر في النهاية على النموذج الرأسمالي الغربي.

فالتاريخ بكل ما يحويه من تركيب وبساطة ،وصيرورة وثبات ،وشوق وإحباط، ونبل وخساسة ،سيصل إلى نهايته في لحظة ما،فيصبح سكونيا تماما،خاليًا من التدافع والصراعات والثنائيات والخصوصيات، ويرد كل شيء إلى مبدأ عام واحد،طبيعي مادي، يفسّر كل شيء، لا فرق بين الطبيعي والإنساني.

وقد أطلق المسيري على هذا التصور، مصطلح "اللحظة النازية" لالتقائه مع المشروع النازي في التطهير والسمو والنزعة الآرية الداعية لاستئصال العرقيات الأخرى، ليتوقف التاريخ والطبيعة على الجنس الآري.

ثانيا: إستراتجية المسيري في نقد الحداثة الغربية:

يدعو المسيري إلى ضرورة مواجهة المشروع الحداثي الغربي في تجلياته غير الإنسانية، وأول ما يقترحه في هذا المجال بلورة واضحة لمفهوم "الإنسان الإنسان" في مقابل "الإنسان الطبيعي"، و"الإنسان الإنسان" عند المسيري هو الرباني الذي ينفصل عن قوانين المادة ،ويرى في الكون مناحٍ ربانية متجاوزة لقوانين الحركة التي تسري على الإنسان والحيوان، فهو الإنسان الحق عكس الطبيعي الذي يمتزج بسهولة مع الكائنات الطبيعية ويتّصف بصفاتها، كما أنه لايذعن لحدود المادة، فهو يعيش في إطار الطبيعة داخل المرجعية الكامنة فيها، ولكن لا يُرد في كليته إليها، ولا يمكن تفسيره في كليته من خلال مقولات مادية بحتة، فتوجد مسافة بينه وبين الطبيعة.

والمسيري بهذه الدعوة يفضح الاستنارة الغربية، ويصفها بالاستنارة المظلمة التي تفكّك الإنسان ولا تجعل له أية مركزية أو مكانة خاصة أو مزية على الكائنات الأخرى.

ويمكن القول أن استراتيجية المسيري في نقد الحداثة الغربية تجسّدت في هذه النقاط، ويكفي سردها لأن كل واحدة منها تحتاج إلى محاضرة منفصلة، وأهمها:

1- **الاختراق المعرفي:** بفهم النظريات الحداثية من الداخل ونقدها في الصميم.

2- **نقد الذات:** فلا نكتفي بإلقاء التبعة على مادية الحداثة وتوحشّها، وبالمقابل لانسعى إلى تأسيس تيار إنساني عقلاني، نمكن أن يكون "يسار إسلامي" قريب إلى الوسط، لايكرّس الشمولية ،ويبرّر الأحداث، ويواجه الكونية.

3- **الارتداد من فلسفة التاريخ إلى التاريخ.**

4- **مواجهة تيار العدمية.**

5- **تنقيح الحضارة:**بتطهيرها من تسلط الفكر الصهيوني الذي ساهم في إذكاء الصراع الإيديولوجي الأهوج في العالم إلى حد التدمير الأعمى.

6- **تجاوز الاستشراق.**

7- **تأسيس جديد للدراسات المقارنة:** تبنى على فعالية الأدب ونشاط الفلسفة عبر عمليات تأويلية منطقية وواقعية.